جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة : الأولى

المادة : الأدب العربي قبل الإسلام

عنوان المحاضرة : موضوعات الشعر الجاهلي (المديح)

مدرس المادة : أ.م.د. بشّار سَعْدي إسْمَاعِيل

٢. المديح:

هو حسن الثناء ويقوم على تعداد مناقب الإنسان وإشاعة محامده وفعاله، هو أقدم الموضوعات الشعرية وتكاد أكثر الأغراض تنتمي إليه، فالرثاء في أساسه مديح لكنه موجه إلى الميت، والغزل هو مديح المرأة وإذا عكست صفات المديح صارت هجاءً.

ويرجح العلماء أن أصل المديح ابتهالات وأدعية كانت توجه إلى الآلهة ثم صارت في العصر الجاهلي تنشأ للملوك والرؤساء. ويأخذ المديح أشكالاً واتجاهات متعددة فهو أما مديح أشخاص أو مديح جماعات.

فمديح الأشخاص هو مديح الشيوخ، والملوك، والرؤساء والوجوه الاجتماعية سواء أكانوا من قادة الجيوش أم من قضاة الناس أم من رجال الدين والعلم ، أم شخصيات معروفة بصفة من الصفات الكبيرة المحمودة.

أما مديح الجماعات فهو أما مديح قبيلة أو مجموعة من القبائل، وقد يرتقي المديح إلى الأمة نفسها ، وربما خرج المديح إلى الفخر والحماسة، وقد يمتدح العربي خصمه عندما يراه قوياً فيعترف له بالدراية والصبر في القتال، وهذا ما أطلقنا عليه (المنصفات).

وفي المديح عوامل ذاتية تدفعه إلى الازدهار ومن هذه العوامل الذاتية:

١. شعور المادحين الأوائل تجاه الممدوحين بنوع من الواجب الأدبي يؤديه إليهم اعترافاً بفضلهم.

٢. الإشادة بالفضائل يولد شعورا لدى المادح للتقرب منها والظهور أمام الناس بمظهر المتصف بها.

٣. ميل الشاعر إلى تثبيت قيم اجتماعية يجد من الضرورة استشرافها في الممدوح مثل الميل إلى السلم، والدعوة إلى الصلح والسعي في الخير.

أما العوامل الموضوعية التي تساعد على تقدم فن المديح فهي:

١. ارتياح النفس البشرية للمدح ، وفي هذا يقول عنترة :

أثني عليّ بما علمت فإنني سمْحٌ مخالطتي إذا لم أظلم

فالإنسان بطبيعته مفطور على حب الإطراء.

٢. طبيعة الحياة العربية تولد الحاجة إلى هذا الضرب من الإعلام للإقرار بالحياة المستقرة تحت القيادة الموحدة.

٣. إن امتداح الشخص واعتراف الآخرين بفضله هو نعمة رضيها الله لنفسه أيضاً عندما يتوجه إليه البشر بالحمد والشكر يقول الجاحظ:((ليس هناك نعمة في الأرض أعظم من أن يكون الرجل محموداً يتولى الناس حمده بدافع من أنفسهم، ومثل هذا الحمد يحمل شعار الصدق ويدل على رفعة الخلق، ونبل النفس في المادح والممدوح على السواء)) .

٤. حاجة المجتمع إلى قائد وذائد، وماجد الأول زعيم مخطط، والثاني شجاع منفذ، والثالث كريم حكيم صاحب مروءة. هذه الحاجة خلقت الدافع إلى امتداحهم لتكريس جهودهم، والمساهمة في تطوير شخصياتهم عن طريق الشعر.

لقد ارتبطت بفن المديح موضوعات أخرى مثل المنصفات، والاعتذاريات ويعزو العلماء إلى النابغة الذبياني البراعة والجودة في فن الاعتذار، وان كان قسم من الدارسين يرى أن الاعتذار فن قائم بذاته، إلا أنه في الحقيقة ضرب من المديح، وقد اشتهر النابغة بقصائد كبيرة بالاعتذار منها (البائية) التي يقول فيها:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتنـــي وتلك التي أهتمّ منها وأنصَب

فبتّ كأنّ العائدات فرشننـي هراساً به يُعلى فراشي ويُقشَبُ

لئن كنت قد بُلِغتَ عني خيانة لمبلغك الواشي أغشّ وأكذب

الهراس : الشّوك . يقشب : يُجدّد .

إلى أن يقول :

ألم تَرَ أنّ اللهَ أعطاك سَورَةً تَرى كلّ مَلْكٍ دونها يَتذبذَبُ

بأنّكَ شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنّ كَوكَبُ

السّورة : المنزلة الرفيعة . يتذبذب : أي يتعلق ويضطرب .

وقد ذكر ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة أن النابغة أول من أخذ الجوائز، ولم يكن الشعراء قبل ذلك يمدحون مقابل أعطيات أو هبات، وإنما كان الشعر يستعمل في حالة المديح عندما يحس الشاعر أنه إزاء عمل عظيم قام به شخص أو لقاء مكرمة بدرت من ملك أو رئيس نحو قومه أو مجموعة من الناس وليس للشاعر من يد شاكره عليها سوى الشعر يمدحه به.

وقد تكون الغاية من المديح شخصية، وهنا ظهرت فكرة التكسب في الشعر وهي ليست صحيحة وبالشكل الذي يطرحها الباحثون، لأن المكافأة التي يأخذها الشاعر لا تعادل القيم الخالدة التي ينشرها ويدعو لها في شعره، وقد يكون بعض المديح غير صحيح، وغير مطابق للممدوح لكن تبقى عملية المدح هي مكافأة المجتمع بلسان الشاعر للعظيم الذي يقدم شيئاً لقومه، وهي تنطلق من فكرة الثواب والعقاب في مختلف النظم والديانات، ولهذا نرى أن الذنب هو

الوجه الآخر في قضية الثواب فكما يمتدح رجل عظيم يحرر وطنه ويدافع عنه ضد الغزاة يذم ويهجى رجل يخون وطنه كما ذم أبو (رغال) في حرب العرب ضد الأحباش.

ومن موضوعات المديح ما يمكن لنا تسميته بـ (المديح السياسي) الذي تكون الغاية منه حلّ المشكلات، التي تقود إلى الحروب والمنازعات بين الممالك، والقبائل، ومن ذلك مديح الشاعر علقمة بن عبدة للحارث بن جبلة الغساني حين أسر أخاه شأساً مع نفر من تميم فمدحة بقصيدة مشيداً بنعمه الكثيرة، متسائلاً كيف لا يكون لأخيه نصيب منها، إذ يقول:

أنت الـذي آثاره فـي عدوّه من البؤس والنّعمى لهن ندوب

وفي كلّ حيّ قد خبطت بنعمة فحقّ لـشأس من نداك ذنوبُ

خصائص المديح:

١. انه يرتبط بالحياة العامة ويصور جانباً من جوانبها، وهو صورة من صور الحياة التي عاشها الشاعر بحربها وسلمها، وحلّها وترحالها.

٢. اختلاف معاني المديح باختلاف الممدوحين، فللملك السلطان والتاج المعقود، وفك الأسرى والترف والسرف، وللقادة الشجاعة والنجدة، وإغاثة الملهوف، ولشيوخ القبائل الكرم، والوفاء وحسن الجوار.

٣. نقله الأحداث التاريخية، وسرده لأيام العرب .

٤. تصويره مفاهيم العرب في الحكم ، ومثلهم العليا .